أسرة المرّاش
الأدبية في حلب

عنوان الكتاب : أسرة المرّاش الأدبية في حلب

المؤلف : عيسى فتوح

تقديم : د. نضال الصالح

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/105/ آذار

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

أسرة المرّاش
الأدبية في حلب

تأليف: عيسى فتوح

تقديم: د. نضال الصالح

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (105)

لو ألّفَ المجدُ..

د. نضال الصالح

في: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" الكتاب الذائع الصيت باسم "رحلة ابن جبير"، وقبل ما يزيد على ثمانمئة سنة، كتب ابن جبير:

"ذِكْرُ مدينة حلب، حرسها الله تعالى. بلدةٌ قدرُها خطير، وذكرُها في كلّ زمانٍ يطير. خُطّابُها من الملوك كثير، ومحلّها من التقديسِ أثير. فكمْ هاجتْ من كفاح، وسُلَّتْ عليها من بيض الصّفَاح. لها قلعةٌ شهيرةُ الامتناع، بائنةُ الارتفاع، معدومةُ الشبهِ والنظيرِ في القلاع، تنزّهتْ حصانةً أن تُرامَ أو تُستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال

واستواء، فسبحان مَن أحكمَ تقديرها وتدبيرها، وأبدعَ كيف شاء تصويرها وتدويرها، عتيقةٌ في الأزل، حديثةٌ وإن لم تزل، قد طاولتِ الأيّامَ والأعوام، وشيّعتِ الخواصَّ والعوام.. هذه حلبُ، كم أدخلتْ من ملوكِها في خبرِ كان، ونسختْ ظرفَ الزمانِ بالمكان. أُنّثَ اسمها، فتحلّتْ بزينة الغَوَان، ودانتْ بالغدر فيمن خان.. هيهاتَ! هيهاتَ يهرمُ شبابُها، ويُعدَمُ خُطّابها، ويُسرعُ فيها بعد حينٍ خرابُها، وتتطرقُ جنباتُ الحوادثِ إليها، حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها"[1].

تلك هي حلب، المنسوبة إلى اسم بانيها الأول، حلب بن مهر بن خاب، فيما قيل في قليل من المدوّنات التي أرّخت لها، أو حلب الشهباء كما قيل نسبة أيضاً إلى المتواتر اليومي لأبناء حلب زمن إبراهيم الخليل، أي "حلبَ إبراهيم الشهباء"، أو هلبون، أو هلبة، أو خلبة، أو باروّا، أو برويا، كما عدّدَ الشيخ كامل الغزّي في كتابه: "نهر الذهب في تاريخ حلب"، وكما قد يكون سقط من متون سواه من كتب التاريخ.

---

[1]. ابن جبير. "رحلة ابن جبير".ط1. دار صادر، بيروت 1980. ص(225).

حلب التي كان صالح بن عليّ بن عبد الله ابن عباس اختارها مقاماً له عندما ولي على الشام جميعاً، وابتنى بظاهرها قصراً له. حلب البحتريّ، والمتنبي، والصفريّ، والصنوبريّ، وكشاجم، والمعري، والخفاجيّ، وابن حبوش، والوزير المغربيّ، وأبو فراس الحمدانيّ، وابن النحّاس، والفارابيّ، والسهروردي، والنسيميّ، وسواهم ممّن كانت حلب مقامه، وملاذه، وموطناً لروحه قبل جسده. ثم حلب رزق الله حسون منشئ أول صحيفة عربية، سنة 1855، مرآة الأحوال، التي كان "يكتبها.. بخطّه الحسَن، ويطبعها على الحجر على ورق صقيل جداً، ثمّ يبعثُ بها في البريد في غُلُف مختومة إلى أطراف الأرض، وفيها من الفصول الشائقة ومقالات الانتقاد على سياسة الحكومة العثمانية يومئذ والتنديد برجالها والتشنيع على جور عمّالها وطرق ارتكابهم في مظالمهم ما أيقظَ الجفونَ وحرّك السكون، ولم يزل ينشرها حتى أدركته المنون"[1]، وأنطوان الصقال، فابنه ميخائيل الصقال، صاحب إحدى

---

[1]. الطباخ، راغب. إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء. ط2. دار القلم العربي، حلب 1988. المجلد 7. ص: 368.

الروايات المبكرة في الأدب العربيّ الحديث: "لطائف السمر في سكّان الزهرة والقمر"، وجبرائيل الدلال، وقسطاكي الحمصي صاحب أوّل كتاب في النقد الأدبي العربيّ الحديث: "منهل الورّاد في علم الانتقاد"(1907)، والشاعر والموسيقي محمد الورّاق، وعبد الرحمن الكواكبيّ، وسواهم ممّا ذكر قسطاكي في كتابه: "أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر"، وممّا لم يذكر، وحفظت كتب أخرى بعض سيرهم، فكان بعض سيرة حلب في غير مرحلة من تاريخها الحديث.

ومن أولئك إلى آخرين مثلوا علامات فارقة في تاريخ الأدب والفن في القرن العشرين، أمثال عمر أبو ريشة، وشكيب الجابري، وخليل الهنداوي، وعبد الله يوركي حلاق، والموسيقي الشيخ بكري كردي، وصباح فخري، ومحمد خيري، حتى جورج سالم، وأديب نحوي، وعبد الفتاح قلعه جي، ومحمد أبو معتوق، كانت حلب، وستبقى، لائقة ببديعة الأخطل الصغير، ولاسيما قوله:

لو ألّفَ المجدُ سِفْراً عن مفاخره

لراحَ يكتبُ في عنوانه حلبا

لقد قدّمت حلب، عبر تاريخها، عدداً غير قليل من الأعلام في غير حقل معرفيّ، ولم تكن هذه السمة التي دأبت عليها في غير مرحلة من هذا التاريخ ظاهرة دالّة عليها بوصفها فضاء إنسانياً له ما يميزه من الفضاءات الأخرى فحسب، بل، أيضاً، متابعة لغير مقدّمة من مقدمات تعبيرها عن تلك الدلالة، ولعلّ من أبرز تلك المقدّمات أنّ حلب كانت المدينة العربية الأولى التي عرفت الطباعة، والتي زادت مؤلفات أبنائها في القرن التاسع عشر "على جميع ما ألّف في سورية والعراق ومصر معاً"[1] آنذاك.

وعلى الرغم من غير زلزال، بالمعنيين الواقعي والمجازيّ، تعرّضت حلب له، وكاد يأتي على أخضرها ويابسها، ولاسيما خلال الاحتلالين العثماني والفرنسيّ، فإنها سرعان ما كانت تنهض إلى الحياة مؤكدة إبداع إنسانها الأول الذي سكن مغاورها، وعبّر عن إرادة عالية في مواجهة ما كان يتهدّد وجوده، وأورث تلك الإرادة أبناءه وأحفاده، مضافاً إليها وقبلها إرادة الكرامة، فعاند هؤلاء الأبناء

---

[1]. الأسدي، خير الدين. "موسوعة حلب المقارنة". المجلّد السابع. مطبعة جامعة حلب 1987. مادة: المطبعة.

والأحفاد غزاتها والضباع البشرية التي تدفقت عليها في السنوات الأربع الأخيرة من غير ظلمة من ظلمات الأرض، والتي ضيّقت الحصار على المدينة وأهلها غير مرة، فأثبتت حلب لنفسها قبل أعدائها ما كانت العرب قالت في أمثالها: "تجوعُ الحرّة، ولا تأكلُ بثدييها".

أربع سنوات وحلب تدفع ضريبة باهظة بسبب اختيارها الانتماء إلى تاريخها، وهويتها، وحصافة حجارتها الشهباء في معاندة آثار الزمن وعاديات الأيام، وإذا كان من أكثر ما آلمها جحود بعض من آوتهم إليها، فإنّ من أكثر ذلك الكثير من الآلام التي برّحتها، ولّما تزل تبرّحها، هي أنّ أولئك لم يكتفوا بذلك الجحود فحسب، بل، أيضاً، تجاوزوه إلى تمكين أولئك الغزاة وتلك الضباع من المدينة وأبنائها، فكانوا شركاء بامتياز في كل نقطة دم سفحت من دماء هؤلاء الأبناء، وفي كل حجر سقط من تلك الحجارة التي طالما استضاء التاريخ بتاريخها، مهما يكن من أمر أنّ بعضاً منهم لم يكن غير ممجد لذلك الزيف الذي تقنّع باسم "ثورة" بالكلمة، والكلمة وحدها.

هذا الكتاب ليس تقديراً لمكانة حلب في الحراك الثقافيّ السوريّ خاصة، والعربيّ عامة، فحسب، بل هو

أيضاً تقدير للثقافة السورية عامة، ولثقافة التنوير على نحو خاص، وهو بعض ضوء على تلك المكانة التي استحقتها حلب بجدارة، كما استحقت شقيقاتها من مدن سورية مثيلتها. وإذا كان من أبرز ما يميزه هو أنه تعريف، أو استعادة تعريف، بعلامات محددة من العلامات الثقافية التي صنعت مجد الثقافة السورية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فإنّ من أبرز ما يميزه أيضاً هو أنه بقلم باحث مشهود له بالمتابعة والتدقيق والكشف عن كنوز من علامات ذلك الحراك، هو الأستاذ عيسى فتوح الذي قدّم إلى المكتبة العربية ما يزيد على خمسة وثلاثين من المؤلفات في هذا المجال، ومن ذلك: "سيرة أديبات عربيات" بأجزائه الخمسة، و"أدباء في الذاكرة"، و"الصالونات النسائية الأدبية في العصر الحديث"، و"حصاد السنين"، وسوى ذلك ممّا مثّلَ إضافة جديرة بالتقدير إلى المكتبة العربية، ولاسيما في حقل التراجم.

في الكتاب ثلاثة تعريفات بثلاثة من أعلام الأدب في حلب من أسرة واحدة توارثت الشغف بالعلم والمعرفة، وكان لمعظم أبنائها دور مؤثر في الحياة الأدبية والفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن

العشرين، هم: فرنسيس المراش، وشقيقه عبد الله المراش، وشقيقته مريانا مراش، الذين أسهموا معاً في حركة التنوير التي كانت إحدى أبرز العلامات المميزة للحياة الثقافية العربية في تلك المرحلة من تاريخ العرب الحديث، ولاسيما ما يعني التمدّن، والرقيّ، والحضارة، والوعي، وتحرير الكتابة من قيودها التقليدية التي ظلت ترسف بأغلالها لوقت طويل.

وواضح أنّ ثمّة خطةً ضبطت عمَلَ الأستاذ فتوح على تحقيقها في كلّ تعريف، يمكن للمرء أن يوافقه عليها، كما يمكن أن يقترح بديلها، أو بدائلها، وإذا كان من أبرز ما يميز هذه الخطة الانطلاق من السيرة الذاتية لكل من أولئك الأعلام، وتقديمها مشفوعة باختيارات من النتاج الشعري لكلّ منهم، ثم التعريف بمنجزه الفكري والأدبي، فببعض أرائه وأفكاره، فإنّ ثمّة ما يُقال حول عمل الباحث عامة، لا حول خطته هذه وحدها، ومن ذلك إكثار الباحث من الشواهد الشعرية من نتاج كلّ علم، واختزاله التعريف بمؤلفاته التي ينطوي الأغلب الأعم منها تحت عباءة التنوير، وهو ما قصدنا إليه من إعداد هذا الكتاب، ثم ورود غير مقولة يبدو الاختلاف حولها ضرورة، وليس مشروعاً

فحسب، ومن ذلك وصف الأستاذ فتوح لكتابات فرنسيس المراش بقوله: "وكان ينزع إلى الإغضاء عن قيود اللغة، وأغلال قوانينها، وصعوبة قواعدها، حتى صار قليل الالتفات إلى تحرير أساليبه، وتنقيح عباراته".

غير أنه مهما يكن من أمر، فإنّ ثمة الكثير ممّا يحمد للباحث في إنجازه الكتاب، ومن ذلك إيراده أقوال باحثين ودارسين حول هذا العلم أو ذاك من الأعلام الثلاثة، ثم إلحاقه التعريف بكل علم بثبت بالمصادر والمراجع التي تُمكّن القارئ من الاستزادة المعرفية بالسيرة الذاتية والفكرية والأدبية لكلّ منهم، كما تُمكّن الباحثين في مجال الفكر والأدب من معرفة بعض ما حظي به هؤلاء من الحفاوة والتقدير في المكتبة العربية.

وبعد، فللأستاذ عيسى فتوح تحية شكر وتقدير لإنجازه هذه التراجم الثلاث، ولحلب، وهي لمّا تزل تعاند غير وطأة وعلى غير مستوى وتؤكّد صمودها في مواجهة الضباع والذئاب التي تدفقت عليها وعاثت خراباً في تاريخها كما تؤكّد انتماءها ووفاءها للجغرافية والتاريخ والهوية التي انتمت إليهما منذ كانت، تحية إكبار وإجلال في صمودها الأسطوريّ بحقّ كما صدّر الباحث كتابه هذا، ولا بدّ

سيبزغ نصر سورية، فتبزغ هذه الـ"حلب" الباذخة بالضوء والتنوير، ليس في عصر التنوير في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فحسب، بل طوال عصور التاريخ أيضاً كما تؤكد مدونات التاريخ.

الإهداء

إلى حلب في صمودها الأسطوري

أسرة المرّاش

الأدبية في حلب

عيسى فتوح

مثلما برّزت أسر اليازجي والبستاني والمعلوف باللغة العربية وآدابها في لبنان، في القرنين التاسع عشر والعشرين... كذلك برّزت وتميزت، وتفوّقت أسرة المرّاش في حلب، فرفعت لواء تلك اللغة، وعُرف منها منذ القرن الثامن عشر كل من بطرس المرّاش، وفتح المرّاش ـ الذي كان له إلمام واسع بالعلوم اللغوية والأدب ـ وخلفه أولاده الثلاثة: فرنسيس (1836 ـ 1873)، وعبد الله (1839 ـ 1900) ومريانا (1849 ـ 1919) التي كانت أول سيّدة عربية كتبت في الصحف، وأسّست صالوناً أدبياً في منزلها بحلب، كان

يلتقي فيه نخبة من رواد الفكر والأدب والشعر والفن.. وسنلقي الضوء في هذا الكتاب على هؤلاء الإخوة الثلاثة، بادئين بأكبرهم سناً وهو:

فرنسيس المّراش

(1836 ـ 1873)

ولد الأديب والطبيب، والشاعر والروائي، والمفكّر، والفيلسوف، والعالم فرنسيس فتح الله المرّاش في حلب، في التاسع والعشرين من شهر حزيران عام 1836[1]، في زمن طغى فيه التعدّي، والظُّلم، والقهر، وكَبْت الحريات، والظلام، والاستبداد في العهد العثماني... ولما بلغ الرابعة من عمره، أصيب بمرض "الحَصْبة"[2] وثقلت وطأتها عليه، حتى أوشكت أن تودي بحياته، وعلى الرغم من أنه شُفي منها

---

(1) ينفرد قسطاكي الحمصي في كتابه "أدباء حلب" بالقول إن ولادته كانت عام 1835، ووفاته 1874.

(2) الحصبة: مرض معدٍ، يُخرج بثوراً في الجلد، ويسبّب حمّى، وبحّة في الصوت غالباً.

تماماً، إلا أنها تركت آثارها البليغة في جسمه النحيل وبَصَره، ما نغّص عليه حياته، وأوهن قواه الضعيفة مدى العمر.

درس فرنسيس العلوم اللسانية، والشعر والآداب، واللغات، تارة على نفسه، وتارة أخرى على علماء عصره الماهرين، وكان كثيراً ما يخلو بنفسه، لينكبَّ على الدراسة ليلاً ونهاراً... واتفق له أن تعرّف على أحد الأطباء الإنكليز في حلب، فدرس عليه العلوم الطبيعية مدة أربع سنوات، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، حتى صار طبيباً، وبعد أن مارس الطب سنة واحدة، شعر بأنه لم يبلغْ هدفه، فدفعته نزعته العلمية إ لى أن يسافر في السابع من أيلول عام 1866 إلى باريس لدراسة الطب في جامعتها، واكتساب المزيد من العلوم والمعارف الطبية، لكنه بعد أن أمضى في باريس مدة سنتين، أصيب بشلل في أعصاب بصره، حال بينه وبين أداء الامتحان الأخير لنيل شهادة الدكتوراه في الطب، فعاد إلى حلب، وهو فاقد البصر كلياً، فصار يستعين بأصدقائه على كتابة ما يؤلفه من كتب، أو ينظمه من شعر.

حـين وصـل إلى بـاريس، ورأى معاهـدها ومتاحفهـا ، وحدائقها، واستمتع بمباهجها، وبهرته أضواؤها، ومظاهر حضـارتها... أخـذ يسـجّل خـواطره وانطباعاتـه، ويـنظم القصائد والموشحات فيها قائلاً:

إنـــني قـــد جئـــتُ بـــاريسَ العُـــلا

ورأتْ عينـــاي مـــا قـــد سمعـــتْ

شِـــمْتُ مـــا لا نظـــرتْ عـــيني ولا

سمعـــتْ أذنـــي ولا روحـــي وَعَـــتْ

آهِ مـــا هـــذي المبـــاني والمَـــلا

هـــل بـــروجٌ أم نجـــومٌ طَلَعـــتْ؟!

كـــل حـــيٍّ أم جمـــادٍ قـــد سمـــا

وبثـــوبِ المجـــدِ والكِبْـــرِ كُســـي

مشـــهدٌ يســـطو علـــى العقـــلِ بهـــا

فيـــه مـــن آيٍ بهـــا الـــدهرُ نُســـي

كما وصف في عدة قصائد غابة «يولونيا»، وساحة "الكونكورد"، والحفلات الراقصة، والسهرات الخاصة، والكثير من مظاهر الحياة المترفة.. لكنّه فُجع وهو في باريس بوفاة والديه، فحزن عليهما حزناً شديداً ومؤثراً، وبكاهما ورثاهما بشعرٍ رقيق، نشره في كتابه "مشهد الأحوال"، وكان لهذا الحادث المؤلم أثرٌ بالغ في حياته، دفعه إلى العزلة والحزن واليأس والتشاؤم، والشعور باسوداد الدنيا في عينيه، وراح يرثيهما قائلاً:

فأنا أبكيكما يا والدَيْ

بدموعٍ ما بكاها أحدُ

إن في موتِكُمَا القاسي لدَيْ

ماتَ حقّاً سَنَدي والعَضُدُ

حتى باريسْ صارت تبدو في عينيه سوداء مظلمة:

لم أجدْ واللهِ في هذي البلادْ

غيرَ داءٍ لي وللغيرِ دوا

ذُقْـت فيهـا كـلَّ كاسـاتِ النكـادْ

وكمـا غـيري مـن البشـر ارتـوى

يـا فـؤادي قـد جـرى فيـكَ الـردى

فعلـى هـذا الـردى مُـتْ أو عِـشِ

لقد كان لهذه المصائب المتوالية التي نزلت به أثرها العميق في نفسه، فاستسلم للحزن والاكتئاب، وصار لا يأنس إلا بقراءة شعر أبي العلاء المعرّي ولزومياته، وفلسفة شوبنْهاوَرْ الطافحة بالتشاؤم...

وانكب وهو كفيف على التأليف، فأصدر في خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته عشرة كتب، عدا المقالات التي نشرها في مجلة "الجنان" التي كان يصدرها المعلّم بطرس البستاني (1819 ـــ 1883) ولم تُجمعْ في كتاب، إضافة إلى بعض المساجلات، والمبادلات الجدلية.

***

أصدر فرنسيس المرّاش عشرة كتب هي على التوالي:

1 ـ غابة الحق: وهي رواية رمزية، كتب أكثر فصولها في باريس، وتدور حول كيفية إقامة "مملكة المدنيّة والحرية"، وقد ضمّنها الكثير من الآراء الفلسفية والاجتماعية، ودعا فيها دعوة صارخة إلى الحرية والإخاء والمساواة والسلام والعدل، وإلغاء الرق والعبودية، وإلى حاجة العرب للمدارس الحديثة، وإلى حب الوطن، بعيداً عن الاعتبارات الدينية والمذهبية والطائفية...

2 ـ مشهد الأحوال: وهو كتاب أملى فصوله في حلب، وقد تضمّن الكثير من النزعات الحرة، والموضوعات الطبيعية والفلسفية والاجتماعية، والحكمية، والغزل.... ونحا فيه منحى مقامات بديع الزمان الهَمَذاني (968 ـ 1007) والحريري (1054 ــ 1122)، وناصيف اليازجي (1800 ــ 1871)، كما عالج فيه أحوال الكون من جماد ونبات وحيوان وإنسان.

3 ــ رحلة باريس: وهو كتاب وصف فيه الرحلة التي قام بها إلى باريس في السابع من أيلول عام 1866، وهو في

الـثلاثين مـن عمـره، والطريـق الـتي قطعهـا بـين حلـب والإسكندرونة في لواء إسكندرون.

4 ـــ شـهادة الطبيعـة في وجـود الله والشـريعة: بنـى فرنسيس المرّاش هذا الكتاب على مبادئ العلوم الطبيعية والعقلية، لبيان وجود الله، وإثبات حقيقته، وقد برهن فيه على دقة نظره، ومعرفته بأحوال الطبيعة والعلوم العصرية، وقد طبع هذا الكتاب في المطبعة الأميركانية في بيروت، بعد أن نشره مجزّأً في مجلة "النشرة الأسبوعية" الإنجيلية.

5 ـ المـرآة الصّـفيّة في المبـادئ الطبيعيـة: وهـو كتـاب بحـث فيـه في الحجـارة والأجسـام البسـيطة والمركبـة، والأنسجة.

6 ـ الكنوز الغنيّة في الرموز الميمونية: وهي قصيدة رائعة تقع في خمس مئة بيت من الشعر، ضمّنها خيالاتٍ شعريةً رمزيةً، وبطلُها يُدعى "ميمون بن مُفتقر" وسرد فيها بعض الحوادث التي وقعت في عصره.

7 ـ ديوان مرآة الحسناء: طُبع هذا الديوان في بيروت عام 1883 بعناية سليم بطرس البستاني (1848 ـ 1884).

8 ــ تعزية المكروب وراحة المتعوب: وهي خطبة له، تحدّث فيها عن تاريخ الدول المنقرضة، وتبدو فيها نزعته الفلسفية المتشائمة.

9 ــ دليل الحرية الإنسانية.

10 ــ دُرّ الصَّدَف في غرائب الصُّدَف، وهي رواية اجتماعية...

كما عرّب رواية كبيرة من اللغة الإيطالية، لكنها لم تُطبع

آراؤه وأفكاره الفلسفية

كتب فرنسيس المرّاش في الكثير من علوم عصره، إلا أنه كان أميل إلى العلوم الفلسفية، أكثر من ميله إلى العلوم الرياضية، لما فيها من سَعَة المجال لبثّ آرائه، وأفكاره.. وكان ينزع إلى الإغضاء عن قيود اللغة، وأغلال قوانينها، وصعوبة قواعدها، حتى صار قليل الالتفات إلى تحرير أساليبه، وتنقيح عباراته.

كان في عزلته يأنس بأدب أبي العلاء المعرّي وفلسفة شوبنْهاوَرْ المتشائمة، كما أشرنا إلى ذلك، ويتبرّم بالناس

والأشياء، ويشكو الدنيا وأهلها، ولا يُسْتغرب هذا من رجل رماه الدهر بالأرزاء والفواجع والنكبات، حتى أصبح كئيباً وسوداوي المزاج، كما في قوله:

تـــوَتَّرُ أقـــواسُ الـــردى لرمـــايتي

ومـــن أعـــينِ الحسّـــادِ تُبْـــرى ســـهامُها

يجـــرّ علـــي الـــدهرُ جـــيشَ خطوبـــه

فتلقـــاه نفـــسٌ يســـتحيل انهزامُهَـــا

ومـــن خـــبر الـــدنيا وأدرك سِـــرَّها

تســـاوى لديـــه حزنُهـــا وســـلامُهَا

لقد كان ينزع إلى الحرية، ويكره كل ما هو قديم وبالٍ، ويتنافى مع الجديد، ويُقال إنه كان أول من نادى في الشرق بمذهب "داروين"[1]...

وكان ذا نزعة ديمقراطية، يريد مثلاً أن لا يقتصر البرلمان على ذوي النفوذ والأغنياء، والإقطاعيين، بل دعا إلى

---

(1) داروين: (1809 ـ 1882) عالم بالطبيعة، إنكليزي، وصاحب نظرية التطور في الأجناس الحيّة.

أن يتمثَّل الشعب بكل طبقاته فيه قائلاً: "لماذا يوجد حق لأصوات الأغنياء، فترنّ في قاعات السياسة، ولا يوجد الحق لأصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الأكبر والأهم، والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك، وقوات الملوك، وعليهم يتوقف مدار السياسات؟....".

ويرى أنه "لا يجب الأخذ بيد الكبير ودفع الصغير، والالتفات إلى الغني والإعراض عن الفقير، ولا مؤازرة القوي ومداراة الضعيف... بل يجب معاملة الجميع على حد سواء، كي لا يقع خلل في نظام الحق.. فكما أن العظماء والأغنياء هم القوة الواصلة، فكذلك الفقراء والصغار هم الآلة الموصلة.. فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير، ولولا تعب ذوي الفاقة ، لم تسهلْ متاجر أرباب الغنى، ولم تُحرسْ أموالهم، ولم تقمْ قصورهم العالية، وسرادقهم المشيّدة".

وهو ذو نزعة اشتراكية حرّة، ينصر العامل على رب العمل، ويريد أن يأخذ العدل مجراه، وأن تكون الحقوق متساوية، كلٌ بقَدْر جهده من العمل.

وعلى الرغم من ميوله الأدبية، فقد كانت النزعة العلمية هي الغالبة على كتاباته، فثقافة العقل عنده لا

تكون إلا بترويضه على العلوم، حيث يرى أنه "لا يتمّ تثقيف العقل إلا بالتروّض في العلوم والفنون، ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية، على أنه لأمر مُحَقَّق كونُ العِلْم يخلق في الإنسان قلباً نقياً، وروحاً مستقيمة، ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية، ونافراً عن كل ما يشين الجوهر الإنساني، ولا يترك له سبيلاً إلى التفكير بالأمور الدنيّة، والميول المنحرفة الأمر الذي تشتق منه كل أفعال الشر، وعليه تُبنى كل دعائم التوحش".

لقد تأثر المراش بمفكري الغرب، وبدا هذا التأثر جلياً في نفسه وفي أدبه، وقد اعُتبر باتجاهه هذا في طليعة أدباء عصره الذين تناولوا في العهد التركي المظلم، قضايا الديمقراطية والحرية والنزعات الاشتراكية، وكان أول أديب في القرن التاسع عشر، استطاع أن يرفعَ صوته عالياً، ويطالبَ بالحرية والديمقراطية والمساواة، وسيادة القانون، والعدل، والعقل، ونشر العلم والمعرفة، وفتح المدارس الحديثة، وإلى أن يكون جميع الناس متساوين أمام القانون، دون تمييز بين واحد وآخر قائلاً:

صـــدّقوني كـــلُّ الأنـــامِ سَـــوَاءٌ

مـــن ملـــوكٍ إلى رعـــاةِ البهـــائمْ

كـــلُ نفـــسٍ لهـــا ســـرورٌ وحُـــزْنٌ

لا تـــني في ولائـــم أو ســـخائمْ

كـــم أمـــيرٍ في دســـته بـــات يشـــقى

بالُـــهُ والأســـيرُ في القيـــدِ نـــاعمْ

أصـــغرُ الخَلْـــقِ مثـــلُ أكبرهـــا جِـــر

مـــاً لهـــذا وذا مزايـــا تلائـــمْ

هـــذه النمـــلُ تســـتطيع الـــذي تـــع

جـــز عـــن فعلِـــهِ الأســـودُ الضـــياغمْ

والخلايـــا للنحـــلِ أعجـــبُ صُـــنْعاً

مـــن قصـــورِ الملـــوكِ ذاتِ الـــدعائمْ

يقول الناقد قسطاكي الحمصي (1858 ــ 1941) في كتابه "أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر": "إذا ما نظرنا إلى ما ألّفه فرنسيس المراش في هذه المدة الوجيزة، أي

منذ عودته من باريس إلى وفاته ــ وهي مدة لا تتجاوز ست سنوات ــ أيقنا أن هذا الرجل الكفيف أوتي من حدّة الذهن، وسرعة الخاطر، وغزارة المادة، وجودة القريحة والألمعية، ما جعله نسيجَ وَحْدِهِ، إلا أنه كان قليل التثبّت مما يكتبه، فبدرت من قلمه أغلاط في اللغة، وألفاظ عاميّة استُدْرج إليها كقوله:

صدحتْ بلابلَةُ الأراكِ صباحا

فأهاجت البَلْبَالَ والأتراحا

والبلبل يُجْمَعُ على بلابلَ، ولم يُسمعْ بجمعه على بلابلة، وقال "أهاج" والأصح "هاج أو هيّج".

وقال: "أمّا وصف شاعريته، فذلك غرض بعيد، فقد كان الرجل شاعراً في نثره ومُرْسله، شاعراً في تخيّله إلى الغاية القصوى، لا شاعر أوزان أو نظّام ألفاظ موزونة ككثير ممن عرفنا، فإن تخيلاته كانت تزاحم ألفاظه، بل كانت تعجز عنها، وإليك شيئاً من حسنات شعره الكثيرة كقوله:

فهـــل ليـــلٌ يـــروح ولا اضـــطرابٌ

وهـــل صـــبحٌ يلـــوح ولا انســـجامُ؟

وصُـــبْحٌ ليلُـــهُ أحيـــا جفـــوني

بطيـــفٍ كـــان يحييـــه الظـــلامْ

أفقـــت مودّعـــاً وَسَـــني وقلـــبي

بـــه مـــن ذلـــك الطيـــفِ اضـــطرامُ

وأحشـــائي تـــذوب وكـــلُ عضـــوٍ

بـــه جـــرحٌ ولم يُرْهَـــفْ حُســـامُ

هَرَعْـــتُ إلى الهضـــابِ ولا رفيـــقٌ

يـــؤانس وحـــدتي إلا الغـــرامُ...

ويقول الحمصي عن أسلوبه: "إنه بعد عودته من باريس، وعكوفه على الكتابة، تبدّل أسلوبه، فهجر المُبْتذل، وندرت الأغلاط فيه، كما يُرى من مراجعة كتبه، ولاسيما كتاب "مشهد الأحوال"، فقد ضمّنه من الموضوعات الطبيعية والفلسفية والاجتماعية والحكمية والغزل طائفة كبيرة...".

أما يوسف أسعد داغر (1899 ـ 1981) فيقول عنه في الجزء الأول من كتابه الموسوعي "مصادر الدراسة الأدبية": "إنه كاتب مبادئ وتفكير، ذو خيال مبدع، عبارته رقيقة، سهلة، ركيكة أحياناً، ليس له نصاعة أديب إسحق ولا هديره، ولا جزالة الشدياق وظرفه وتهكّمه، غزير الأفكار، خطابي اللّهجة في كل من شعره ونثره، ولعلّه كان أسبق كتاب عصره للمطالبة بإنشاء دنيا جديدة يسودها السلام، ويرفرف عليها الوئام في كتابه غابة الحق".

وأضاف أيضاً: "لقد نظم فرنسيس المرّاش كثيراً، إلا أنه كان قليل العناية بأوزانه، قليل التدقيق بألفاظه، ولعلّ هذا أثر من حبّه للحرية، ودعوته إلى التحرر من القيود... وهو شاعر حسّاس، لا بأوزانه وألفاظه، بل بخياله وحسه الدافق، فالصورة عنده تسابق الألفاظ... وهو واضح الصور، واسع الوصف، تكثر عنده الحواشي والكلمات الغريبة، ويميل إلى السجع والاستعارات والتشابيه....".

أما الناقد مارون عبود (1886 ــ 1962) فقال عنه في كتابه "رواد النهضة الحديثة": "قال فرنسيس المرّاش أكثر

شعره في أغراض جديدة، وعبارته رقيقة وسهلة، وأحياناً ركيكة، غزير الأفكار، وكثيراً ما يعجز عن تأديتها بعبارة صحيحة، مُتشعّب المواضيع، تغلب اللهجة الخطابية على ما يكتب شعراً ونثراً، واضح الصور، واسع الوصف، تشابيهه واستعاراته وصوره مؤثّرة، ولكنها تفيض عذوبةً وحناناً، يغلب عليه التشاؤم حتى في غزله، وفي أشد مواطن الفرح ترى على وجهه جُهُومة ابتسامة حزينة إلا أنها صادقة، وإني أعزو ذلك إلى "الحَصْبة" التي أصيب بها صغيراً، فتركت تشقّقاً وتصدّعاً في بنيان هيكله، فأدّى ذلك إلى كفّ بصره وموته مبكراً، وهو في السابعة والثلاثين من عمره".

وقال أيضاً: "وشعر المرّاش ونثره يدلان دلالة صارخة على حبه العلم، فكأن الطب الذي تعلّمه أحاله فيلسوفاً في كتابَيْه "مشهد الأحوال" و"غابة الحق"... وللغُرْبة أثرها البيّن في شعره ونثره.. كوصفه لبعض المشاهد الباريسية.. وكان أميل إلى وصف الحضارة والمدنيّة منه إلى وصف الطبيعة...".

وينهي كلامه على المرّاش بقوله: "والمرّاش يختلف عن أديب اسحق والشدياق في تفكيره ومبادئه، فهو متأثر

بالعلم والفلسفة أكثر من جميع كتّاب عصره، نزّاع إلى إصلاح المجتمع، يدعو إلى الأخذ بالحضارة الحديثة، أمّا ثقافته فمتأثرة بالدين، ولغته تكاد تكون لغة الكنيسة المستعربة حديثاً... ولا تنسَ أن المحيط الذي نشأ فيه، كان محيطاً تركي اللسان، فحلب التي سرت منها الفصحى إلى لبنان، كانت اللغة التركية تجري على ألسنة معظم سكّانها...".

"وبعد، فلست أحدثك عن الأخطاء اللغوية في كتب المرّاش، لأنها كثيرة جداً، ولا عن الإسهاب في التعبير، لأن عبارته غير مرصوصة ولا متلازّة، وهو يزج في شعره ونثره الألفاظ العاميّة غير الفصيحة، ويتصرف كما يشاء في الاشتقاق والجموع، ولو خلا نظمه ونثره من مثل هذه العيوب لكان أكتب وأشعر أهل زمانه".

***

المصادر

1 ــ الأدب العربي المعاصر في سورية (1850 ــ 1950) ــ سامي الكيّالي ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة 1968.

2 ـ أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر ـ قسطاكي الحمصي ـ مطبعة الضاد ـ حلب 1969.

3 ــ تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (الجزء الثاني) ـ جرجي زيدان ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

4 ـ تاريخ الآداب العربية (1800 ــ 1925) الأب لويس شيخو ـ دار المشرق ـ بيروت 1991.

5 ــ تاريخ الصحافة العربية (الجزءان الأول والثاني) فيليب دي طرازي ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت 1913.

6 ـ مصادر الدراسة الأدبية ــ يوسف أسعد داغر ــ (الجزء الأول) منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت 1983.

7 ـ رواد النهضة الحديثة ـ مارون عبّود ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1952.

8 ـ وجوه مضيئة في الأدب العربي الحديث ــ عيسى فتّوح ــ دار كيوان ـ دمشق ـ 2003.

9 ــ الفكر السياسي العربي في العصر الحديث ــ منير مشابك موسى ــ مكتبة السائح ــ طرابلس ــ لبنان 1995.

10 ـ روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ـ إلياس أبو شبكة ـ دار للكشوف ـ بيروت.

عبد الله المرّاش

(1839ـ1900)

عبد الله المرّاش هو الابن الأوسط لفتح الله المرّاش بين ولديه فرنسيس ومريانا.

ولد في حلب في الرابع عشر من شهر أيار عام 1839، ونشأ فيها، وتأدّب على والده وغيره، فتلقى في حداثته مبادئ علوم العربية والخطّ والحساب، ثم دخل مدرسة "الرُّهبان الفرنسيسيين" فأخذ عنهم أصول اللغة الإيطالية.

انصرف إلى أعمال التجارة، فلمّا أتقن فنونها، وبدت نجابته فيها، انتدبته جماعة من خيرة تجار حلب، لعقد شركة تجارية ينشئ لها محلاً في "مانشستر" ببريطانيا،

فسافر إليها سنة 1861، ولبث فيها حتى سنة 1869، واشتهر بما كان يتمتّع به من الأمانة والإخلاص، والدراية في العمل التجاري.

في عام 1870 انتقل إلى باريس، فأقام فيها حتى سنة 1882، ثم غادرها إلى مرسيليا، وألقى فيها عصار التسيار، وظلّ يعيش فيها حتى وافته المنية في السابع عشر من كانون الثاني عام 1900، وهو في الحادية والستين من عمره.

انصرف إلى المطالعة، والتوسّع في العلم، ولم ينقطعْ عنه على الرغم من عمله بالتجارة، فقد كان كثير التردّد إلى مكتبات لندن وباريس، يتصفّح ما فيها من كتب نادرة قديمها وحديثها، ولاسيما الخطيّة منها، وقد نسخ عدة كتب منها بخطّه الجميل، وكان ضليعاً من الإنشاء العربي، يحسن الكتابة، ويحرص على وضوح معانيها، وله مقالات جيدة في الأخلاق والآداب، وانتقادات حسنة على منشورات المستشرقين، ورسائل شتى في العلوم العصرية والأحوال السياسية، وكان جميل الخط، كثير التأنّق به كأكثر خطّاطي حلب.

وكان أيضاً سهل العبارة، واضح الأسلوب، بصيراً باختيار الألفاظ والتراكيب، حسن النقد، حريصاً على البلاغة، ووضوح المعاني، آخذاً بالنصيب الأوفر من قوالب فصحاء العرب، وألفاظ الخاصة من أهل الأدب، وكان مع ذلك يتقن ثلاث لغات أجنبية هي: الإنكليزية والفرنسية والإيطالية، ويكتب فيها جميعاً، فكان له باع طويل في التاريخ والفلسفة، وعلم الأخلاق، والأديان، والشرائع المختلفة، مشاركاً في الكثير من علوم المعاصرين كالطبيعيات والهيئة، وسائر الفنون العقلية، بصيراً بالسياسة، مطّلعاً على أسرارها ودقائقها، وله في كل ذلك مقالات ورسائل شتى، منها ما لا يزال مخطوطاً حتى اليوم، ومنها ما نُشر في بعض الصحف العربية التي كانت تصدر في باريس، كجريدة "مصر القاهرة" لأديب إسحق، وجريدة "الحقوق" لميخائيل عورا، وجريدة "كوكب الشرق" وغيرها.. ولما أنشأ رزق الله حسون (1825 ـ 1880) سنة 1876 جريدة "مرآة الأحوال" في لندن، تولّى عبد الله المراش تحريرها، وفي عام 1880 عاد إلى مانشستر مديراً لأعمال فتح الله الطرازي وأشغاله التجارية.

كذلك نشر بعض المقالات في المجلات المصرية مثل "الضياء" التي كان يصدرها صديقه الشيخ إبراهيم اليازجي (1847 ــ 1906)، وأشهر ما طبع له مقالته "التربية" التي نشرها تباعاً في مجلة "البيان" لإبراهيم اليازجي أيضاً.

أما الشعر، فعلى الرغم من تضلعه من فنون البلاغة، وكثرة ما كان يحفظ من أشعار العرب والمولّدين، وشهرة أخيه فرنسيس، وأخته مريانا فيه، فإنه كان قليل الرغبة في تعاطيه.

أما صفاته الشخصية فيقول قسطاكي الحمصي والكونت فيليب دي طرازي، نقلاً عن إبراهيم اليازجي في "الضياء": "إنه كان ربعة القوام، معتدل الجسم، أبيض اللون، طَلْقَ المحيّا، فصيح اللسان، مهذّب المنطق، واسع الرواية، لطيف المحاضرة".

ويقول اليازجي نفسه: "إنه قد أتيح له لقاؤه عند مروره في مرسيليا أواخر سنة 1895، وكان في السابعة والخمسين من عمره، فبدا له وقد كلّل الشيب رأسه، وأنضجته السن والتجربة، وألفى فيه رجلاً جليل القَدْر، كامل الصفات، قد جمع بين رزانة الإنكليز، ورقّة الفرنسيين، وأريحية

العـرب، وكـان علـى أعظـم جانـب مـن الزهـد، وخفـض الجنـاح، بعيـداً عـن الزهـو والخـيلاء، منزّهـاً عـن الادعـاء والكبرياء، حتى إنه مع سعة فضله، ورسوخ قدمه في العلم والإنشاء، وإجماع المطالعين على استحسان كلامه، كان يتفادى من ذكر اسمه في أكثر ما كتبه، وما طُبع له، ويشترط ذلك على كل من يروم نشر شيء من آثاره، وهذا لا شـك مـن عنـوان تمـام فضـله، وتناهيـه في الكمـالات الإنسانية".

أمـا قسـطاكي الحمصـي فيقـول إنـه التقـاه في بـاريس، وكان المراش في الأربعين من عمره، والحمصي في العشرين ومنـذ ذلـك اليـوم اتصلت بينهمـا المراسلة التي لم يزدّهـا مـرُّ السنين إلا تمكينَ ودٍّ وإخلاصٍ، إلى أن قُدّر له الاجتماع به مرة ثانية في مرسيليا في أواخر عام 1892 وأوائل عام 1893، حيث أقام فيها أشهراً، ولم يكنْ يمر يوم دون الاجتماع به، والتمتّع بمحادثته، وحلاوة عشرته.

وكـان إذا اسـتبطأ قدومـه إليـه، أسـرع إلى منزلـه، وكان المرّاش يعلم ما بينه وبين الشيخ إبراهيم اليازجي من الودّ القديم، والولاء الصميم.

كان اليازجي شديد الشوق للقاء المّراش، فلمّا التقيا في مرسيليا كتب المرّاش إلى الحمصي ــ إذْ كان واسطة التعارف بينهما ـ قائلاً: "قد أسعدني الزمن بلقاء صديقكم الأجلّ الإمام اليازجي، وما زلت منذ دهر طويل، ولا سيما بعد فراقكم، أتشوّق إلى لقائه والاجتماع به".

واستكبر الأخبارَ قبل لقائه

فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْرُ

وكتب اليازجي إلى الحمصي يقول: "قد رأينا صاحبكم كوكب المشرق طالعاً في سماء المغرب، فشاهدناه كما وصفتموه، وفوق الوصف".

وكان لعبد الله المرّاش معرفة برزق الله حسّون، وبينهما صداقة ومعاشرة طويلة، وكان ينشر في جريدته "مرآة الأحوال" بلندن، مقالاتٍ سياسية في غاية الإصابة، ويوقعّها باسم إنكليزي مستعار، كما كان ينشر في جريدة "برجيس باريس" مثل ذلك، وهي جريدة أسسها الكونت اللبناني رُشَيد الدَحْداح (1813 ــ 1889).... لكن هذه المقالات لم تُجمع ـ مع الأسف ــ في كتاب، ربما لأن

العمل في التجارة صرفه عن جمعها، وقلّل من اهتمامه بها، فبقيت مدفونة في بطون هذه الجرائد التي كان معظمها يُنشر في فرنسا وبريطانيا.

قال عنه سامي الكيالي (1898 ــ 1972) في كتابه "الأدب العربي المعاصر في سورية": "عاش عبد الله المرّاش الحلبي الشطر الأكبر من حياته في الغرب يعمل في الشؤون التجارية، إلا أن التجارة، وما في عالمها الزاخر من مغريات الربّح، لم تصرفْه عن حياة الفكر، فقد كانت النزعة الأدبية في نفسه هي الأغلب".

وقال: "كان وهو في باريس ولندن على اتصال وثيق بما ينشره أعلام الفكر من الأوروبيين، يقرأ كتبهم بفهم ووعي، وكان على اتصال بأكثر ما ينشره المستشرقون من مخطوطات عربية، وقد نسخ الكثير من المخطوطات التي تضمها مكتبات الغرب، وكان من باريس، ومن مقرّ عمله في مرسيليا، يبعث برسائله ومقالاته إلى صحف القاهرة وبيروت، وإلى جريدة "الجوائب" التي كان يصدرها أحمد فارس الشدياق (1804 ــ 1888) في استانبول، منها ما يوشّحها بتوقيعه، ومنها بالحرف الأول من اسمه، فينم أسلوبه عن شخصيته".

وأضاف أنه "لم تكن لعبد الله شهرة أخيه فرنسيس، ولا شهرة أخته مريانا، وإن كان يبزّهما في فنّ الترسّل، فلأسلوبه الرصين هذه الجزالة التي تُفصح عن أدق المعاني بأبلغ الكلمات...."

كان أكثر مقالاته يدور على التربية ولاسيما تربية الأولاد الصغار، وعلى العلم والمعلّم الذي قال فيه: "إن المعلّم أبٌ ثانٍ للولد، ولذا قال الإسكندر المكدوني يوماً: إنه وإن كان ابن فيلبّس المكدوني جسماً، فهو ابن أرسطو نفساً، لأنه إن كان فيلبّس سبباً لحياته، فأرسطو هو الذي علّمه كيف يعيش مكرّماً، وما أحسن ما قال الشاعر:

أقــدّم اســتاذي علــى فضــلِ والــدي

وإن كان لي من والدي الفخرُ والشرفْ

فــذاك مربّــي الــروح والــروحُ جــوهرٌ

وذاك مربي الجسمِ والجسمُ من صَدَفْ

وقال عن تربية الصغار:

"اعلم أن تربية الصغار كسياسة الكبار، قائمة على ركنين مهمين، أحدهما: السلطان، بالإضافة إلى المربي،

وثانيهما الطاعة بالإضافة إلى الولد... إلا أن السلطان ينبغي أن يكون مقترناً بالرفق في حزم، أي منزّهاً عن العنف في غير موضعه، وعن الرخصة والتسامح في غير موضعهما".

"كما أن الطاعة ينبغي أن تكون ناشئة عن ثقة الولد بمربّيه، وعن الاحترام والهيبة اللذين تبعثه عليهما المحبة له، لا الخوف من عقابه... فإن أهمل من التربية واحدةً من تلك الطرق، أو عدم منها أحد هذين الركنين، فسدت وفاتت الخلّة المقصودة منها".

أعود للقول مرة ثانيةً، لو جُمعت مقالات الأديب عبد الله المرّاش المتفرقة في بطون الصحف والمجلات، لكنّا أخذنا فكرة أوضح، وصورة أشمل عن أسلوبه وآرائه ولكن ما مضى فات، ويستحيل أن تُجمع هذه المقالات اليوم، بعد أن مضى على وفاة كاتبها قرن ونيّف من الزمن.

***

المصادر

1 ــ الأدب العربي المعاصر في سورية (1850 ــ 1950) ــ سامي الكيالي ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة 1968.

2 ـتاريخ الآداب العربية (1800 ــ 1925) الأب لويس شيخو اليسوعي ـ دار المشرق ـ بيروت 1991.

3 ــ تاريخ الصحافة العربية (الجزءان الأول والثاني) فيليب دي طرازي ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت 1913.

4 ـ أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر ـ قسطاكي الحمصي ـ مطبعة الضاد ـ حلب 1968.

5 ـ رواد النهضة الحديثة ـ مارون عبّود ــ دار العلم للملايين ـ بيروت 1952.

مريانا المرّاش

(1849ـ1919)

إذا ما ذكرنا الشاعرتين وردة اليازجي (1838 ـــ 1924)، ووردة الترك بنت الشاعر نقولا الترك (1763 ـــ 1828) في لبنان، تذكّرنا مريانا المرّاش في حلب، فهي الأخت الصغرى للشقيقين فرنسيس وعبد الله المرّاش، وابنه فتح المراش ـــ صاحب المكتبة المرّاشية الشهيرة في حلب والمشرق العربي ـ الذي عُني بالمطالعة، واقتناء الكتب، حتى جمع هذه المكتبة الكبيرة، وترك بعض الكتابات التي لم تنشر.

أما أمها فكانت امرأة ذكية وعاقلة، ومدبّرة من أسرة أنطاكي، وكلا الأسرتين ـــ المراش والأنطاكي ـــ معروفتان بالوجاهة، وحب العلم في حلب.

ولدت مريانا عام 1849 في حلب، في بيت يُعنى بقضايا الأدب والفكر والفن والثقافة، وتلقت دراستها الابتدائية في مدرسة "ماريوسف" حيث درست العربية والفرنسية التي صارت تكتب بها وتتكلمها بطلاقة وسهولة ــ وكانت قد دخلت، وهي في الخامسة من عمرها، المدرسة المارونية ــ ثم انتقلت إلى المدرسة الإنكليزية التي أسسها الدكتوران إدّي ويوحنا وورتبات في بيروت، فدرست فيها مبادئ اللغة العربية، والحساب، وبعض العلوم، وبعد عودتها من بيروت ــ وهي في الخامسة عشرة من عمرها ــ أخذ أبوها يعلّمها الصرف والنحو والعروض، ثم تتلمذت على أخويها فرنسيس وعبد الله اللذين غرسا في نفسها حب الأدب، فحفظت في بدء نشأتها الأدبية الكثير من شعر ابن الفارض والشعراء العذريين كجميل بثينة، وكثيّر عَزَّة، ومجنون ليلى، وشعراء الغزل الماجن كعمر بن أبي ربيعة، والشعراء الرومانسيين في فرنسا أمثال لامارتين، وألفرد دي موسّيه وغيرهما..

لم تكتفِ مريانا بدراسة الأدب واللغة وقواعدها، بل أخذت تتلقى بعض الدروس في الموسيقى، والعزف على آلتي القانون والبيانو، حتى أجادت ذلك كله.

وما هي إلا سنوات، حتى آنست من نفسها القدرة على نظم الشعر، فنظمت بضع قصائد أرسلتها إلى مجلة "الجِنان" التي كان يصدرها المعلّم بطرس البستاني الذي كان أول من دعا إلى تعليم المرأة العربية، فوقعت هذه القصائد في نفسه موقعاً حسناً، ونشرها، وشجّعها على مواصلة النظم، ورعى موهبتها الشعرية، كما نشر بعض مقالاتها الأدبية التي كانت تنتقد فيها بعض عادات فتيات عصرها، وتحثهنّ على التزيّن بالعلم والفضيلة، والأخلاق والأدب، وكذلك فعل خليل خطّار سركيس (1842 ــ 1915) الذي نشر لها بعض مقالاتها في جريدة "لسان الحال".

يقول سامي الكيالي في كتابه "الأدب العربي المعاصر في سورية" عنها: "كانت مريانا المرّاش تنتقد التقعر في أساليب الكتّاب، وتدعو بنات جنسها إلى معالجة الكتابة، وإلى تحسين الإنشاء، وتنويع الموضوعات والتفنن بها، وقد سافرت إلى أوروبا، واطّلعت على أخلاق الأوروبيين وعاداتهم عن كثب، فاستفادت منهم كثيراً، ثم عادت إلى وطنها، لتبثَّ بين بنات جنسها روح التمدّن الحديث، والأخلاق الصحيحة".

ويقـول أيضـاً: "كانـت مريانـا لزمنهـا مـن الشـاعرات المشـهورات... فهـي أول أديبـة سـورية كتبـت في الصـحف، ولاسـيما بعـد زيارتهـا ديـار الغـرب... وظهـور امـرأة تكتـب في الصـحف، وتـنظم الشـعر في تلـك الفـترة المظلمـة مـن العهـد العثماني، حادث له دلالته، وتاريخنا القريب يقول: إن الـذين كانوا يقرؤون ويكتبون من الرجـال في تلك الفـترة بالـذات، مـن النـدرة بمكـان، لـذلك كـان ظهورهـا في خضـم تلـك الليالي المظلمة أشبه بالنجمة المضيئة في كبد السماء".

صالونها الأدبي

لم تـأتِ أهميـة هـذه الشـاعرة في تـاريخ الأدب العربـي الحديث، من ظهورها في زمن مبكّر في أواخر القرن التاسع عشـر، وأوائـل القـرن العشـرين، أو مـن ديوانهـا الصـغير "بنـت فكـر" الذي صدر عن المطبعـة الأدبيـة في بيروت عـام 1893، بل من صالونها الأدبي الذي يُعدّ الوحيـد مـن نوعـه في الشـرق العربي، فقد سبق ظهوره ظهور صـالون الأديبـة ميّ في زيـادة (1886 ــ 1941) في القـاهرة بعـدة سـنين، ولعـل رحلتهـا إلى أوروبـا، ومشـاهدتها أمثالـه عنـد السـيدات الفرنسـيات،

كمدام دي ستايل، ومدام دي نواي، شجعتها على تأسيسه في حلب، على الرغم من ضيق الحياة الاجتماعية، وتزمّت المجتمع، وانتشار الحجاب الكثيف في تلك الفترة المظلمة من العهد العثماني البائد.

كان رواد صالونها الأدبي نخبة ممتازة من أدباء حلب يومذاك، كقسطاكي الحمصي، وجبرائيل الدلاّل، ورزق الله حسون، وكامل الغزّيّ وغيرهم، حيث يحيون فيه كأسرة واحدة، ويتناشدون الشعر، فكل واحد منهم يلقي ما نظمه أو كتبه في فترة غيابه عن الصالون.

أما مريانا فكانت تحوط الجميع بأغمار الحب الدافئ، والأنوثة الناعمة، والمرح البريء، وتوزّع ببراعة فائقة ظرفها ورقّة شمائلها، وإشراقات مبسمها الجميل، حتى يخرجوا من صالونها، وهم يلهجون بلطفها الجم، وحسن معشرها، ومسحورين بأنغام وموسيقى قانونها العذبة، وألحان بيانها الساحرة.

يقول قسطاكي الحمصي الذي كان أحد روّاد صالونها الأدبي الدائمين: "كانت مريانا مليحة القدّ، رقيقة

الشمائل، عذبة المنطق، فكهة الأخلاق، طيبة العشرة، حسنة الجملة، عصبية المزاج، وتميل إلى المزاح... وكان منزلها في حلب مثابة الفضلاء، وملتقى الظرفاء والنبهاء، وكان لنا عندها منزلة ترتدّ عنها أعين الحسّاد كليلة، لما كان بيننا وبين شقيقها عبد الله من المودة الجزيلة الطويلة، فسقياً لأيام الشباب، ومجالس الآداب والأحباب، ومساجلاتنا بالمحفوظ والبديه من الأشعار، ورقصنا على العود والمزمار".

لكن عندما أسرف الأتراك في تضييق الخناق على الأدباء والشعراء، ورجال الفكر الأحرار، وبث الرعب والفوضى، وإشاعة الذعر في صفوف الناس، وخاصة حملة الأقلام منهم، وأمعنوا في سجنهم ونفيهم وتقتيلهم، اضطر هؤلاء الأحرار إلى مغادرة الوطن مرغمين، تاركين فيه أحباباً يذوبون شوقاً إليهم وحنيناً إلى ضمّهم، ولاسيما من كانوا يترددون إلى صالون مريانا، ويلقون فيه قصائدهم، ونكاتهم الطريفة، وأحاديثهم الطليّة.

لقد انفرط عقد هؤلاء الأدباء، وأقفر الصالون منهم، فقد فرّ جبرائيل الدلال[1] (1836 ــ 1892) الذي كان في طليعة المغضوب عليهم من الأتراك إلى باريس بلد النور والحرية، ومن هناك أخذ يراسل صديقه قسطاكي الحمصي في حلب، ويصف له حياة الفرنسيين الطليقة من كل قيد، وحريتهم التي هي أثمن ما يملكونه، وأنه على الرغم من كرهه الغربة راضٍ بها، ما دامت تصون كرامته، وتحمي عِرضه وشرفه من الأذى، قائلاً:

وإذا لم يكنْ هنا غيرُ أن الحرَ فيها يعيش دون منازعْ

فهو يكفي حظاً لقلبي، وإن سالت على غربتي غروبُ المدامعْ

لم تبقِ لي الأراذلُ في الشهباءِ من مأربٍ ولا من مطامعْ

وعندما يذكر الشهباء، سيذكر حتماً "مريانا" ربة الفضل والفضائل ــ كما يقول ــ ومجالس الأدب اللطيفة، في صالونها الأنيق، ويتحسّر على الأيام الجميلة التي ذهبت:

---

(1) جبرائيل الدلاّل شاعر وصحفي حلبي، أنشأ جريدة (الصدى) في باريس، و(السلام) في القسطنطينية، انتقد الحكام الأتراك، ومات في حلب ضحية الاستبداد الحميدي.

لا، ولا اشتهي سواكمْ، ولا أرغب فيها من بعدِ تلك الوقائعْ

غيرَ قربِ الفريدة اللطفِ، ذاتِ الصونِ والحسنِ والذكا والبدائع

ربةِ الفضلِ والفضائلِ (مريانا) التي ذكرها يسرُّ المسامعْ

والتي زانها الكمالُ إذا زان سواها الحلي وسَدْلُ البراقعْ

لقد كانت هذه الجلسات الأدبية الماتعة تُعقد في منزل مريانا الواسع على مدى عدة سنوات، ونحن نعلم أن صالونات الأدب التي ترعاها السيدات المترفعات، والأديبات الموهوبات، تصبح ملتقى كبار الرجال من أدباء وشعراء وفنانين، ومفكرين، وسياسيين كصالونات: هدى شعراوي، ونازلي فاضل، وميّ زيادة، وأماني فريد في القاهرة، وزهراء العابد، وثريا الحافظ، وماري عجمي، وكوليت الخوري، وحنان نجمة وابتسام صمادي، وجورجيت عطيّة، ونهى الحافظ في دمشق، وحبّوبة حداد في بيروت، وفضيلة فتّال في طرابلس (لبنان)، وإنصاف الأعور مِعْضاد في عاليه بلبنان، وصبيحة الشيخ داود في بغداد وغيرها..

وأخيراً لابد من القول إن مريانا المرّاش كانت أول أديبة عربية فتحت بيتها في حلب لاستقبال الأدباء، على الرغم من أن العصر الذي عاشت فيه، كان عصر تزمّت شديد، وتقاليد صارمة، وعادات بالية.

ديوان "بنت فكر"

لقد جمعت مريان المراش قصائدها ومقطوعاتها الشعرية في ديوان صغير اسمته "بنت فكر" ضمّت فيه قصائد المدح، والوجد، والحكم والرثاء، والغزل، وشعر المناسبات، والإلهيات، والإخوانيات... فقد مدحت مريانا عدداً من رجال السلك الدبلوماسي الذين كانوا يؤمّون صالونها.

كما مدحت عدداً من رجال الحكم من عرب وأتراك، دون طمع في مال، أو بُغية عطاء، بل إعجاباً بهم، وتقديراً لهم، ولذلك نحسّ ونحن نقرأ هذا الشعر بأنه يفيض بالود، وينضح بالإخلاص والوفاء، كقولها في مدح السيد "إيفانوف" قنصل روسيا في حلب آنذاك:

بزغتْ شموسُ السعدِ بالشهباءِ

فجلت لياليها عن الظلماءِ

قُشعتْ غيومُ الضيمِ عنها فانجلتْ
كعروسةٍ تُزري ببدر سماءِ
وغدت بها السكانُ تمرح بالهنا
وتجرُّ ذيلَ مودّةٍ وهناءِ

ومن شعرها تهنّيء السيد جميل باشا بولاية حلب عام 1881:

أفديه لا أفدي سواه جميلا
أولى المحبِ تعطُّفاً وجميلا
بدرٌ عَنَتْ دولُ الجمالِ لحسنه
فأبى لذا تمثالُهُ التمثيلا
فإذا تجلّى فوق عرشِ كمالِهِ
تجثو له زُهْرُ النجومِ مُثُولا
وإذا توارى في حجابِ سنائِهِ
لا تبلغ الجوزا إليه وصولا

وقالت تهنّيء إحدى السيدات الجميلات من صديقاتها:

مـــن كـــلِ غانيـــةٍ زهـــتْ بجمالِهـــا
ودلالهـــــا كالروضـــــةِ الغنـــــاءِ
ماســـتْ كغصـــنٍ فوقـــه بـــدرٌ لـــه
مـــــرأى الثريّـــــا في بـــــديعِ بهـــــاءِ
بحواجـــبٍ مقرونـــةٍ قـــد أُوتـــرت
قوســـاً تـــرن بـــه ســـهامُ فنـــائي
إن كلّمـــت صـــبّاً بنَبْـــلِ لحاظِهـــا
كـــان الشـــفاءُ لـــه بعـــذْبِ المـــاءِ
حتـــى تـــردَّ إليـــه ذاهـــبَ روحِـــهِ
فيعـــودَ معـــدوداً مـــن الأحيـــاءِ

وقالت أيضاً:

مـن كـان مـن أهـلِ الفضـائل والنهـى
وغـــدا أســـيرَ شمائـــلٍ وعيـــونِ

يهـوى الجفـاءَ مـن الحبيـب فـإن جفـا

يَـــزْدَدْ بـــه كَلَفـــاً وفـــرطَ شُـــجونِ

يشـــكو لـــه ويظـــل يشـــكو فعلَـــهُ

إن التعفـــــف شـــــيمةُ المفتـــــونِ...

أما رثاؤها فيكاد ينحصر في أهلها وأقربائها.. وكلُ واحد منهم عزيز عليها، وأثير عندها... فقد رثت أخاها فرنسيس المتوفى سنة 1873 رثاء باكياً ينم عن عاطفة صادقة وجيّاشة، لا تقلّ عن عاطفة "الخنساء" نحو أخيها "صخر"...

لقد جمعت بينهما وحدة المصاب الأليم، إذ فقدت كلتاهما أخاً شاباً وسيماً، وكريماً وشهماً، ولذلك لا نستغرب إذا تلاقت وتطابقت معاني كل منهما.

لقد عمدت مريانا ـ كما الخنساء ـ إلى تعظيم أخيها، وإظهار فضله وعلمه ونبله، وأدبه، والإشادة بمناقبه وشهرته الواسعة، وتهويل فاجعتها به، حتى إنها أشركت معها الوُرْق والأزهار، والرياض، ومظاهر الطبيعة كلها، من هواء

وماء.... وهي لا تخفي تأثّرها بالخنساء، بل تصرّح به قائلة:

مــالي أرى أعــينُ الأزهــار قــد ذَبُلَــتْ
ومــال غصــنُ صِـباها مــن ذرا الشــجر؟
مـالي أرى الـروضَ مكمـوداً وفي كـربٍ
والمــــاءَ في أنّـــةٍ والجـــوَّ في كَــدَرِ؟
مــالي أرى الــوُرْق تنعــي وهــي نادبــةٌ
فــراقَ خــلٍ وتشــكو لوعــةَ الغِيَــرِ
نعــم لقــد ســابق الأحيــاءَ أجمَعَهــا
ونــام ذا اليــومَ مطروحــاً علــى العَفَــر
مــن فقّــه النــاسَ في علــمٍ وفي أدبٍ
ونــوَّر الكــلَّ في شمــسٍ مــن الفِكَــر؟
أبــدى مــن الفضــلِ ضــوءاً لا خُبــوَّ لــه
والشــمسُ شمــسٌ وإن غابـت عـن النظـرِ
وإنـــه بحـــرُ علـــمٍ لا قـــرارَ لـــه
وقــد حــوى كــلَّ منظــومٍ مــن الــدُّرَرِ

هــذا الــذي جابــت الأقطــارَ شــهرتُهْ
قــد صــار مطَّرحــاً في أضــيق الحُفَــرِ
خنســاءُ صــخرٍ بكتــه حينمــا نظــرتْ
إليــه مُلقــىً بــلا سَــمْعٍ ولا بَصَــرِ
أقــلامُ أهــلِ النهــى ترثيــهِ واأســفي
هــل عــاد مــن عــودةٍ يــا مفــردَ البَشَــرِ؟
قد غاب شخصُكَ هـذا اليومَ عن نظري
جــادت عيــوني بــدمعٍ ســال كــالمَطَرِ
فيالَــدَهرٍ خــؤونٍ لا ذِمَــامَ لــه
قــد راش ســهماً أصــاب الفضــلَ بالقَــدَرِ
فحــزنُ يعقــوبَ لا يكفــي لنــدبِكَ يــا
نَــدْباً تفــرّد بالأجيــالِ والعُصُــرِ
ويــلاه مــن حــزنِ قلــبٍ نــال غايَتَــهُ
قــد واصــل القلــبَ في غــمٍّ مــدى الــدَّهَرِ

في لجّةِ الحزنِ نفسي ضاق مَسْكَنُها

من ذا يسلّي فؤادي قلَّ مُصْطَبَري

لقد كانت عواطفها كعواطف كل امرأة مكلومة، وهل تحتاج عواطف المرأة المكلومة إلى دفع أو إثارة لتتفجر؟! أفلا يكفي أن نقول إنها عاطفة أخت وكفى؟!

ولمريانا هذا البيتان في رثاء صبية من نسيباتها توفيت محترقة بالبترول:

عفافةُ نفسٍ مع بديع محاسنٍ

ورقّةِ أعطافٍ فللهِ كم تَسْبي!!

لقد جمعتْ ضدين في حدٍّ ذاتها

ففي اللحظِ إيجابٌ يشير إلى السلبِ

***

أما غزلها فهو الوجه الآخر المقابل لرثائها، فكلا الفنين يعتمدان على العاطفة الرقيقة والوجدان الملتهب والمضطرم... ولا ندري هل كان هذا الغزل واقعياً جرى فعلاً

لها وصدر عن تجربة ذاتية وحب عميق، أو أنها تصوّرته وتكلّفته دون أن تشغل قلبها به؟ تقول:

بـذكرِ المعـاني هـام قلـبي صَـبَابةً

فيا نورَ عيني هل أكون على القُرْب؟

عسى الشمسُ في مرآكَ للعين تتجلي

فتنقلُ للأبصار ما حلّ بالقلب..

لم يكنْ بإمكان مريانا المرّاش أن تكون غير ما كانت، كأنْ تخترق جدران محيطها الضيّق، وتتمرّد على ما اصطلح عليه المجتمع، لأن طبيعة الفترة المظلمة التي عاشت فيها، فرضت عليها أن تسير على خطا من تقدّموها من الشعراء، ولا أقول الشاعرات، لأنه لم يكن ثمة شاعرات بالمعنى الحقيقي يومذاك، لذلك سارت على خطاهم التي رسموها: في الأفكار الضحلة، والمعاني السطحية، والصور المكررّة، والأخيلة القريبة، لأن الجمود السياسي في تلك الفترة، أدّى إلى الجمود الفكري، ونُدرة الإبداع في الأدب، والفكر، والفن...

***

لقد أقبل الشعراء في زمنها على شعر التصوّف والتعبّد، بسبب الحروب، وتفاقم المحن والويلات، آملين من الله أن يكشفَ عنهم ظلام هذه المحن، ويبعدَ عنهم الضيم، فلجؤوا إلى نظم "البديعيات" التي توسلوا فيها إلى الله ليخلّصهم مما هم فيه من ضيق وضنك عيش وإرهاق...

ولو رجعنا إلى دواوين شعراء عصر الانحطاط، لرأيناها تحفل بالقصائد الابتهالية الطافحة بالتسابيح والصلوات التي يمكن أن تُنشد وتُرتّل في المساجد والكنائس، علماً بأن ناظميها لم يكونوا من رجال الدين... وقد جرّبت مريانا هذا النوع من الشعر في ديوانها، فقالت مبتهلةً إلى الله، خالقِ السماوات، وبارئ الكائنات:

الله أكبرُ أنت الحيُّ والصَّمَدُ

مقصودُ كلِ البرايا واحدٌ أحدُ

لا ينعمُ المرءُ في الدنيا بلا أملٍ

فالوعدُ منكَ وأنتَ العونُ والمددُ

إن قلّ رزقٌ فأنت الفضلُ أوسَعُهُ

أو حلَّ بؤسٌ فأنت الرِّفقُ والعَضُدُ

وكـل مـن رام شـيئاً مـن سـواكَ غـوى

ولا يقـــرّ لـــه حـــالٌ ولا سَـــنَدُ

إذا مـــددتَ يـــداً في يـــومِ معركـــةٍ

فتخمـــد النـــار والأبطـــالُ ترتعـــد

يـا مبـدعَ الكـونِ يـا مهـدي الأنـام إلى

سِـــراطِ حقِّـــكَ إن ضـــلُّوا فيرتشـــدوا

يـــا مـــن يجيـــب نـــداءَ المســـتغيث بـــه

يـــا مـــن عليـــه جميـــعُ النـــاسِ تعتمـــد

***

وعلى الرغم من صغر حجم ديوانها "بنت فكر" وقلة عدد صفحاته، فو يحفل ببضع قصائد حكمية، عبّرت فيها عـن فلسـفتها، ونظرتهـا إلى الحيـاة، وضـمنته خلاصـة تجاربها، كقولها:

مـا كـلُّ مـن طلـب الكرامَـةَ نَالهـا

مـن رام صـيدَ الظـبي حـلَّ بـه العَنَـا

ذو المـــالِ يـــذهب ذكـــرهُ مـــع مالِـــهِ

لكـــنَّ ذكـــرَ الفاضـــلينَ بـــلا فنَـــا

ومن قولها في إحدى القصائد الإخوانية التي وشحت بها الديوان، وضمنتها المثل الذي يقول "وْعدُ الحرّ دينٌ":

يـــا ذا الوفـــا والـــدّينِ أنـــتَ وليُّـــه

وعـــلاءُ فضـــلِكَ دونـــه الجـــوزاءُ

هـل تـذكر القـولَ الـذي سَـمَحَتْ بـه ال

نّفـــسُ النفيســـةُ واليـــدُ البيضـــاءُ؟

فالوعـــد عنـــد الحـــرّ دَيْـــن ثابـــتٌ

وبوعـــدِ مثلِـــكَ يحسُـــن الإيفـــاءُ

أنجـــزْ بـــه واقبـــلْ ثنـــاي ودمْ علـــى

طـــول المـــدى تخضـــعْ لـــك البُلَغَـــاءُ

***

لم يصفُ الدهر لمريانا المرّاش كل الصفاء، فبعد أن نعمت في شبابها بالجمال الأخّاذ والملاحة، والحسن، داهمها في شيخوختها مرض "الميلنخوليا"[1] أو جنون الاكتئاب، إذ كانت عصبية المزاج إلى حد بعيد... فبعد أن كانت تحيا حياة سعيدة حالمة، تغمرها أنغام الموسيقى وتنغمس في دنيا الأدب والشعر والفن، في صالونها الأنيق، أقفر الصالون من روّاده، وأحست بأنها صارت وحيدة منسيّة، بعيدة عن الأضواء ومعزولة، فأصابها ما أصاب سميّتها ميّ زيادة، ومن المفارقات الغريبة أن تُصاب كلتاهما بالداء العصبي في أخريات حياتهما، إذ كانت كل منهما عصبية المزاج، وقد يعود هذا إلى فرط حسّاسيتهما.

وإذا كان الكبْتُ الجنسيُّ هو الذي أورث مي زيادة هذا الداء، فما كانت مريانا كمّي... فقد أصاب جنون الاكتئاب مريانا رغم أنها كانت متزوجة من "حبيب الغضبان" وأنجبت منه ثلاثة أولادهم هم: جبرائيل، وليّا وأسما...

---

(1) الميلنخوليا: مرض نفسي ينزع المصاب به إلى الحزن والانقباض، ويسميه البعض "السوداء" أو الاكتئاب.

والسؤال: هل كان فرط الحساسية عند مريانا أكثر منه عند ميّ؟

توفيت مريانا المرّاش في حلب عام 1919 وهي في السبعين من عمرها تاركةً صدى أدبياً واسعاً، سيظل يتردّد على مر الزمان وتعاقب الأجيال.

المصادر

1 ــ أديبات عربيات (الجزء الأول) عيسى فتوح ــ الندوة الثقافية النسائية ـ دمشق 1994.

2 ـ الأدب العربي المعاصر في سورية (1850 ــ 1950) سامي الكيالي ـ دار المعارف بمصر 1968.

3 ـ أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر ـ قسطاكي الحمصي ـ مطبعة الضاد ـ حلب 1968.

4 ـ تاريخ الصحافة العربية (الجزءان الأول والثاني) ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت 1913.

5 ــ تاريخ الآداب العربية ــ لويس شيخو ــ دار المشرق ــ بيروت 1991.

6 ـ الأعلام (المجلد السابع) خير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين ـ بيروت 1997.

***

مختارات من شعرها

قالت تهجو طبيباً جاهلاً:

طبيـــبٌ بـــلا علـــمٍ يـــروم لنفسِـــهِ
مـــديحاً لفعـــلِ يقتضـــي أقـــبحَ الـــذمِّ
فيســقي عــلاجَ المَــذْقِ مــن عــذبِ لفظِــهِ
وينفـــث مـــن أفعالِـــهِ قاتـــلَ السُّـــمِ

***

وقالت بيتين نُقشا على نعش فتاة:

يـــا زهـــرةً ذَبُلَـــتْ بغـــيرِ أوانِ
ناحـــت عليهـــا الـــوُرْقُ بالأغصـــانِ

فتعزّيـــــا يـــــا والـــــديها إنهـــــا

مثـــلُ المـــلاكِ مضـــتْ لخلـــدِ جِنَـــانِ

***

وقالت ما نُقش على كيس تبغ:

احفـــظْ ودادك في فـــؤادِكَ كامنـــاً

واثبـــتْ ولاتَـــكُ مثـــلَ تَبْـــغِ دُخـــانِ

فعواصـــفُ الأنفـــاسِ تُصْـــعِدُه سُـــدىً

وتزجُّـــــه في عـــــالمِ النســـــيانِ

والـــودُّ ضـــمنَ القلـــبِ نقطـــةُ مركـــزٍ

كـــالأرضِ ثابتـــةٌ علـــى الـــدورانِ

***

وقالت في مدح خديوي مصر:

زهـــورُ الـــروضِ تبســـم عـــن ثغـــورٍ

زهـــت فحكـــت عقـــوداً مـــن جُمَـــانِ

نـــــداها يـــــبهج الأرواحَ رشـــــفاً

بـــــه مـــــاءُ الحيـــــاةِ لكـــــلِ دانِ

إذا هـــــبّ النســـــيمُ علـــــى رباهـــــا

تعطّـــــــرتِ المعاهـــــــدُ والمغـــــاني

رعـــــاه اللّه مـــــن روضٍ أرانـــــا

مـــــن الأغصـــــانِ قامـــــاتِ الحســـــانِ

وحُـــــوراً إن سَـــــفَرْنَ ومِلـــــن عُجْبـــــاً

ســـــلبْنَ عقـــــولَ أربـــــابِ المعـــــاني

وقـــد قامـــت طيـــورُ الأُنْـــسِ تشـــدو

بألحـــــــانٍ أرقَّ مـــــــن المثـــــــاني

هنـــــا جنـــــاتُ بِشْـــــرٍ قـــــد تـــــراءت

لـــــدى الأبصـــــارِ في شـــــبهِ الجنـــــان...

* * *

ومن حكمها قولها:

ذو العقـــلِ يســـمو بالحجـــا ويســـود
وبحســـــنِ رأيٍ يُمـــــدَح الصِّـــــنديدُ
إن الفتـــى المِقْـــدامَ مَـــنْ يـــومَ الـــوغى
خـــــاض المعـــــامعَ والعـــــداةُ شـــــهودُ
والنَّـــدْبُ مـــن نـــال الفخـــارَ وزانـــه
بالجِـــــدِّ آبـــــاءٌ لـــــه وجـــــدود

***

وقولها:

شـــرفُ الفتـــى عقـــلٌ لـــه يســـمو علـــى
كـــل الـــورى فينـــال غايـــاتِ المنـــى
وكـــذاك حســـنُ الخُلْـــقِ فخـــرُ مســـوَّدٍ
متســـــربلٍ بـــــاللطفِ نعـــــم المُقتنـــــى

والمـــــرءُ إن شـــــهدتْ لـــــه أفعالُـــــهُ

بالفضـــــلِ والآدابِ يكتســـــب الثَّنـــــا

مـــا كـــلُ مـــن طلـــب الكرامَـــةَ نالهـــا

مـــن رام صـــيدَ الظَّـــبي حـــلّ بـــه العَنَـــا

ذو المـــالِ يـــذهب ذكـــرُهُ مـــع مالِـــهِ

لكـــنّ ذكـــرَ الفاضـــلينَ بـــلا فَنَـــا

* * *

وقالت مُشَطّرةً بعض أبيات من نظمها:

للعاشـــقينَ بأحكـــامِ الغـــرام رضـــاً

يُمســـون صـــرعى بـــه لم يُؤْنَفُـــوا المرضـــا

لا يســـــمعون لعـــــذلِ العـــــاذلينَ لهـــــم

فـــلا تكـــنْ يـــا فتـــى للجهـــلِ معترضـــا

روحـــي الفـــداءُ لأحبـــابي وإن نقضـــوا

ذاك الـــذِّمامَ وقـــد ظنـــوا الهـــوى عرضـــا

جـاروا ومـا عـدلوا في الحـب إذ تركـوا

عهـدَ الـوفِّ الـذي للعهـدِ مـا نقضـا

قـفْ واسـتمْع سـيرة الصـبِ الـذي قتلـوا

وكـــان يـــزعُمُ أن المـــوتَ قـــد فُرِضـــا

أصـــابه ســـهمُ لحـــظٍ لم يبـــالِ بـــه

فمـــات في حـــبِّهم لم يبلـــغِ الغرضـــا

رأى فحـــبَّ فـــرام الوصـــلَ فـــامتنعوا

فمـــا ابتغـــى بَـــدَلاً مـــنهمْ ولا عِوَضَـــا

تقطّـــع القلـــبُ منـــه بانتظـــارِ عســـى

فســـام صـــبراً فأعيـــا نيلـــهُ فقضـــى...

* * *

المحتوى

لو ألفَ المجدُ.. تقديم د. نضال الصالح.....5
الإهداء.....15
أسرة المرّاش الأدبية في حلب/ عيسى فتوح 17
فرنسيس المّراش.....18
عبد الله المرّاش 37
مريانا المرّاش.....47
مختارات من شعرها 69

إصدارات سلسلة

كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب - د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام - ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى - نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكان وسكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة - خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	م
2009	فاديا غيبور	د. حسين جمعة	محمود درويش - مختارات شعرية من دواوينه والانترنت	30
2009	فاديا غيبور	د. حسين جمعة	عائد إلى حيفا وأعمال أخرى- غسان كنفاني	31
2009	فاديا غيبور	د. حسين جمعة	عذبة رواية- صبحي فحماوي	32
2009	د. حسن حميد	د. حسن حميد	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	33
2009	د. حسن حميد	د. حسين جمعة	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	34
2010	محمد حمدان	د. حسين جمعة	مختارات من شعر علي الجندي	35
2010	فاديا غيبور	د. حسين جمعة	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)- علي المزعل	36
2010	فاديا غيبور	د. حسن حميد	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	37
2010	فاديا غيبور	د. حسن حميد	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	38
2010	فاديا غيبور	د. حسن حميد	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع - رشاد أبو شاور	39
2010	فاديا غيبور	زبير سلطان قدوري	شفيق الكمالي --- مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	40
2010	فاديا غيبور	د. حسين جمعة	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	41
2010	فاديا غيبور	د. حسين جمعة	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية - د. خليفة صالح أحواس	42
2010	فاديا غيبور	د. حسين جمعة	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	43
2010	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	44

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
46	القصـيدة تبحـث عـن نفسـها (شـعراء النسـعينيات والأنمـاط الشعرية السائدة)	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمـي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختـارات شـعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	ماياكوفسكي غيمة في سروال	مالك صفور	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليـأس : أمـل يستنسخ أوصافه	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفرلني مـأخوذا بـالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	غزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علـي جعفـر العلاق	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صفور	مالك صفور	2011
55	جـان جـاك روسـو المصـلح الاجتمـاعي - محمـد عطيـة الأبرشي	مالك صفور	مالك صفور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأفنان	مالك صفور	مالك صفور	2012
57	حي بـن يقظـان لابـن طفيـل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صفور	2012
58	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمد) عـام 1968 مدحـة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صفور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1	مالك صفور	مالك صفور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
	عباس محمود العقاد			
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصير - الشـاعر الفـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومصـارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقـه والتصـوف والمسـائل	أ. محمـد رلـب	مالك صقور	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
	الشرعية في الخلافة	الحلاق		
76	صالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2015

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان فضملي	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان فضملي	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015
102	غابـــة الحـــق (أفـــق التنـــوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د. نضال الصالح	2016